عبد السلام العجيلي.. ذكرى وذاكرة

قال قبل وفاته: شبعت من الحياة وما عدت أرغب بالمزيد

سارة سلامة

في عام ٢٠٠٦ وتحديداً في الخامس من شهر نيسان، رحل الأديب والسياسي عبد السلام العجيلي، بعد أن خلّف وراءه عشرات الكتب بين روايات، ومجموعات قصصية، ومقالات في الأدب والثقافة والسياسة والفن والطب.

ولد العجيلي عام ١٩١٩، وكتب أولى قصائده الموزونة وهو في الـ١٥ من العمر، متأثراً بالجو الثقافي الذي نشأ به، فهو حفيد حميد العجيلي، الذي عُرف عنه تأليف الشعر البدوي، وتعد مجموعاته القصصية الاثنتا عشرة مدونة سردية مؤسسة ودالة على ظاهرة القص العربي، حيث بلغ عدد أعماله أربعة وأربعين كتاباً حتى عام ٢٠٠٥.

وهو ابن قرية بسيطة تتربع على ضفاف الفرات في مدينة الرقة، انطلق منها ليصبح أيقونة في عالم الأدب، واختار في بداية مشواره الانتقال إلى حلب، ليدرس الطب ويضمد جراح الناس، إلا أن المرض أجبره إلى الانقطاع عدة سنوات عن الدراسة، ليتفرّغ خلالها للمطالعة، مختارا الكتب الدينية والقصص الشعبية التي نمّت لديه الحس الأدبي، وحرّكت شغف الموهبة عنده، فنشر في عام ١٩٣٦ أولى قصصه بعنوان «نومان» من خلال اسم مستعار؛ في مجلة «الرسالة» المصرية ركز فيها على حياة البداوة وبساطة أهل بلدته الجميلة.

وتعتبر كتابات العجيلي في المجال الأدبي من ضمن أغنى وأهم الروايات الأدبية العربية في تاريخ الأدب العربي وقد ترجمت معظم أعماله إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والروسية، وتدرس العديد من أعماله في الجامعات والمدارس وهو اليوم مرجع من مراجع الأدب العربي.

وفي ذكرى وفاته السادسة عشرة نستذكر ما قاله بسطور «لقد شبعت من الحياة، عشتها بكل ما فيها، وما عدت أرغب في المزيد»، من خلال هذه الجملة لخص الكاتب السوري الراحل حياته التي امتدت لأكثر من ٨٦ عاماً، وجمعت بين السياسة والأدب والعائلة.

مسيرة حياة

تربّى العجيلي على يد جدّه الصارم تربية إسبارطية، وتلقى تعليمه الابتدائي في الرقة وحمل الشهادة الابتدائية عام ١٩٢٩، بعدها مضى إلى دراسة الإعدادية في ثانوية المأمون بحلب قبل أن يلتحق بكلية الطب في جامعة دمشق، ويعود إلى الرقة طبيباً ويشرّع باب عيادته فيها منذ ذلك الحين حتى نيْف على الثمانين، انتخب نائباً عن مدينة الرقة عام ١٩٤٧، وكان من الشباب السوريين الذين انخرطوا وحاربوا في صفوف جيش الإنقاذ عام ١٩٤٨.

ودخل في العاصمة إلى عالم السياسة والتظاهرات ضد الاستعمار الفرنسي والنشاطات السياسية فعاد إلى الرقة حاملاً شهادة الطب ومغامرة السياسة واستطاع أن يدخل البرلمان السوري كأصغر نوابه سناً عام ١٩٤٧ مرشّحاً عن الرقة، وبعدها انتقل من العمل النيابي للتطوع مع «جيش الإنقاذ العربي»، في الحرب ضد الاحتلال عقب النكبة عام ١٩٤٨ وكان لتجربة الهزيمة أثرها في كتابيه «فلسطينيات» و«نبوءات الشيخ سليمان».

طبيب يهوى السياسة

بعد النكبة عاد العجيلي إلى ممارسة الطب في الرقة بعيداً عن السياسة، ورغم أنه لم يتفرّغ للكتابة إلا أن صفة الأديب طغت عليه أكثر من الطبيب والسياسي فكتب مجموعة من القصص القصيرة في تلك الفترة كـ«الخان» و«ساعة الملازم» و«رصيف العذراء» ليثبت اسمه بجدارة كواحد من رواد القصة القصيرة في العالم العربي، إلا أنه في مطلع الستينيات عادت السياسة لاجتذابه مجدداً؛ فتسلّم خلال سنوات انفصال سورية عن مصر عدة حقائب وزارية كالإعلام والخارجية والثقافة، وبقيت الكتابة تغريه فأصدر المزيد من المجموعات القصصية المتنوعة وأشهرها «قناديل إشبيلية»، يصف زياراته إلى المدن الأوروبية ورحلاته حول العالم على شكل حكايا كتبها في «حكايات من الرحلات». كما كان له دور في الثمانينيات بقيادة حملة طبية لمواجهة انتشار مرض شلل الأطفال واستطاع نشر اللقاح المجاني ضد المرض والقضاء عليه بنسبة كبيرة.

واستمرّ في الكتابة حتى آخر سنوات حياته حين أصدر كتاباً عن تجربته في «حرب فلسطين» وذكرياته عنها بعنوان «جيش الإنقاذ» في العام ٢٠٠٥.

كما تولى عدداً من المناصب الوزارية في وزارة الثقافة ووزارة الخارجية والإعلام عام ١٩٦٢، ويعد أحد أهم أعلام القصة والرواية في سورية والعالم العربي.

الكتابة سلوك

قد تكون الكتابة أحد أسرار العجيلي وسلوكاً يتبعه، فهو ما إن حصل على الثانوية، حتى بدأ ينشر قصته الأولى «نومان» عام ١٩٣٦بتوقيع ع. ع في مجلة الرسالة المصرية، كما نشر بأسماء مستعارة قصصاً وقصائد وتعليقات في مجلة «المكشوف» اللبنانية وفي سواها من الدوريات الدمشقية إلى أن فضح السرّ سعيد الجزائري وهو من أدباء دمشق، وفي عام ١٩٤٣ فازت قصته «حفنة من دماء» بجائزة لمسابقة القصة.

وتعرف العجيلي في مصر عام ١٩٤٨ إلى الشاعر أحمد رامي، وأنجز في هذا العام مجموعته القصصية الأولى «بنت الساحرة»، كما ألف مع عدد من الكتاب السوريين

> من العمل النيابي إلى جيش الإنقاذ وخيبات سكنت نفسه وعقله

الظرفاء «عصبة الساخرين» وهو الذي اقترح عليهم اسمها، ويعتبر العجيلي الأدب متعة وهواية ويكاد لا يبقى لهذه الهواية سوى وقت يسير يتبقى بعد موجباته في مهنة الطب، وكذلك بعد موجبات الأسرة وإدارة إرث أبيه الذي توفي سنة ١٩٦٣، حيث يقول: «إنني لا أنظر إلى الكتابة الأدبية كعمل بل كنوع من أنواع السلوك، وبكلامه هذا لم يكن العجيلي ينتقص من الاحتراف فقد كتب بعد ذلك القصة والرواية والشعر والمقالة.

أبرز الأعمال

قدّم العجيلي عام ١٩٥١ مجموعة شعرية حملت اسم «ليال ونجوم»، ومجموعة قصصية تحت عنوان «ساعة الملازم»، وتتكون من تسع قصص قصيرة، وفي العام نفسه سافر العجيلي إلى فرنسا ليفتتح بتلك الرحلة التي استمرت ستة أشهر، نحو ٢٠ عاماً من الأسفار بين دول العالم، وشكّلت مصر إلهاماً للعجيلي في تلك الفترة لتقديم المزيد على صعيد الأدب.

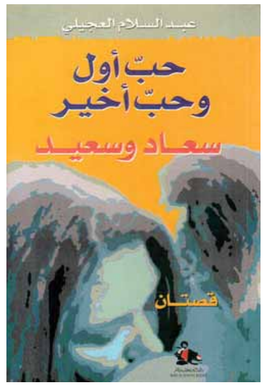

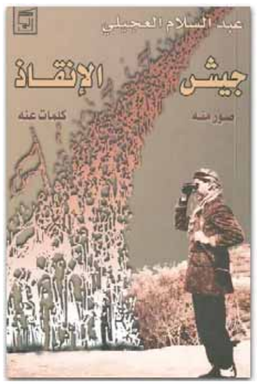

وبين عامي ١٩٥٤ و١٩٥٨، ألف العجيلي كتاب «حكايات من الرحلات» الذي يندرج ضمن أدب الرحلات، وهو نوع أدبي قائم مثل أدب المراسلات وأدب الاعتراف وأدب السجون، إضافة إلى مجموعة قصصية بعنوان «قناديل إشبيلية»، كما كتب عام ١٩٥٩ روايته الأولى «باسمة بين الدموع»، والمجموعة القصصية «الحب والنفس»، ثم جاءت رواية «رصيف العذراء السوداء» والمجموعة القصصية «الخان» عام ١٩٦٠.

وفي عام ١٩٦٥ قدّم عبد السلام العجيلي الكثير من الأعمال الأدبية التي تنوعت في النوع وأسلوب الطرح، ومنها «الخيل والنساء» و«من الذي أقتل» و«ثلاث رسائل أوروبية» و«أحاديث العشيات»، و«أشياء شخصية» عام ١٩٦٨.

ومن أبرز أعماله أيضاً، «فارس مدينة القنطرة: قصة أندلسية»، و«حكاية مجانين»، وكتاب «السيف والتابوت»، ورواية «أزاهير تشرين الهمداة» و«عبادة في الريف» و«سبعون دقيقة حكايات»، و«تجاربي في واحد وسبعين عاماً»، و«الحب الحزين» وفي عام ١٩٨٢، جمع العجيلي ما ألفاه تحت أدب الرثاء ضمن كتاب حمل اسم «وجوه الراحلين».

«جيل الدريكة» و«فلسطينيات عبد السلام العجيلي» و«محطات من الحياة» و«مجهولة على الطريق»، هي أيضاً من أعمال عبد السلام العجيلي الأدبية التي شكلت بصمة وإضافة في تاريخ الأدب العربي، وحفظت للطبيب الأديب مكاناً بارزاً بين الكتّاب والأدباء السوريين.

واختتم العجيلي حياته الأدبية عام ٢٠٠٥، قبل أن يختتم الحياة ككل عام ٢٠٠٦، مقدماً في سنواته الأخيرة رواية «أجملهن»، وكتاب «ضد التيار»، و«حب أول وحب أخير» و«سعيد وسعاد»، وكتاب «جيش الإنقاذ».

صاغ شخصيته

لا بد من الكلام عن عوامل عدة صاغت عالم العجيلي القصصي، وهي البيئة الاجتماعية في وادي الفرات في مطالع القرن العشرين، المكونة من تشكيل اجتماعي بدوي إلى نصف حضري، حيث يعيش الناس على الحكاية، والمسامرات، وأحاديث العشيات، وحيث الأسرة المتناسلة من السادة الحسينيين، الذين تروى عنهم في تلك الربوع حكايات الكرامات والخوارق والأعاجيب. فينحو الناس على حدث يجدونه مؤهلاً للإبهار، ويكرمون الدراويش والمجذوبين، ولا يجمعونهم في سفينة الحمقى. وذلك بالاتساق مع الوعي السياسي الاجتماعي بالتحديث وبفكرة الدولة، إلى جانب مجتمع الفجر المحيط، الذين يترددون على المكان بوعيهم الميتافيزيقي. عرفت حياة الناس في تلك المضارب العناصر المسرحية الآتية من المسرح التاريخي في علاقته بالتحول القومي، والعناصر المسرحية التي تحملها الطقوس، وكذلك ما حمله الاستعمار الفرنسي من جديد.

أين نحن من الأمن العلمي والثقافي العربي؟

د. رحيم هادي الشمخي

الأمن القومي والأمن الغذائي يرتبطان بالأمن العلمي والفكري في الدول المتقدمة والنامية على السواء، ولكن السؤال: هل أجهزة العلم في البلاد العربية سليمة ومهيأة بكل ما يمكنها من البحث العلمي وتخريج المتخصصين في كل علوم العصر ومطالب التكنولوجيا؟

كلنا مهتمون بالأمن القومي: أمن الدول العربية من الخارج، وأمن المواطن العربي في الخارج على نفس المال والأهل، وكلنا مهتمون بالأمن الغذائي: أمن كل مواطن على غذائه وغذاء أولاده ومن يعول، وكلنا محقون في هذا الاهتمام، لأن أمن الوطن والمواطنين من الخارج والداخل هو الشرط الأول لوجود الأمة نفسها، كما نحن مهتمون وكلنا نفكر في الأمن، ولكن من الذي يضطلع بمسؤولياته؟ من الذي يتولى بالفعل تحقيق أمننا القومي والغذائي؟.

التجربة وإدراكها

إنها صفوة مختارة من المتعلمين المجربين المدركين لظروف الأمة العربية ومطالب أمنها، العارفين بأحوال الدنيا من حولنا، العاملين على حمايتنا وحماية أوطاننا من الأخطار المحدقة، وهذه الصفوة المختارة رشحها علمها وفهمها وإدراكها وتجربتها للقيادة في هذه الميادين، ومن دون هذه الصفوة المختارة لا أمان لنا من الخارج أو الداخل، وعلى قدر ما يبلغ إليه علم هذه الصفوة ومستوى إدراكها وتجربتها، يكون قدر ما يتحقق للأمة قائم على علم ومعرفة وخبرة، فإذا لم يتيسر هذا للأمة فلا سبيل لها إلى اختيار الأكفاء الصالحين للقيادة القادرين على حمل المسؤوليات.

أمن الأمم

إذاً فالأمن القومي العربي كله والأمن الغذائي كله قائمان على أمن علمي فكري، وهذا لا ينطبق علينا وحدنا، بل ينطبق على كل الأمم، كبيرة أو صغيرة، متقدمة أم غير متقدمة، فوراء الأمن الذي تتمتع به الولايات المتحدة الأمريكية قومياً وغذائياً، وفي عالم اليوم أوطان تضم أراضيها من الثروات الطبيعية ما يقارب ما عند الولايات المتحدة الأميركية، ولكن هذه الأوطان غير آمنة من الخارج، وفيها جماعات كثيرة جداً محرومة من الحد الأدنى من الغذاء، لأن هذه الأوطان لا تتمتع بالأمن العلمي والفكري الموجود في بعض الدول المتقدمة، وهذه الأمم تشكو قلقاً أو نقصاً في العلم والفكر، ونتيجة لهذا فهي تعاني نقصاً في الأمن من كل خطر خارجي أو داخلي وقبل ٧٠ عاماً كانت روسيا القيصرية تملك هذا الوطن الروسي الشاسع الذي تراه على الخريطة، ولكن روسيا لم تكن مع ذلك دولة آمنة لا من الخارج أو الداخل، لأن الأمن العلمي والفكري لم يكن يكاف إذا تحمل مسؤوليات وطن ضخم مثل روسيا، ولهذا فقد كان أول ما اهتمت به روسيا بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ هو اقامة القاعدة العلمية الفكرية التي بنوا عليها أمن البلاد في كل الميادين، ومفهوم الثقافة اليوم يشمل كل عناصر الحياة وأساليب العيش في المجتمع: كيف يفكر الناس، كيف يحسون، كيف يتصورون الدنيا، ماذا يأكلون وماذا يشربون، وكيف يأكلون ويشربون؟ إنها أسلوب الأمة في الحياة، وكما أن كل منا يختلف عن غيره في أسلوبه في الحياة والتعرف فكذلك تختلف أمة عن أمة في أسلوب حياتها، فالفرنسي متقدم كالإنكليزي، ولكن أسلوب الحياة مختلف في فرنسا عنه في إنكلترا، ولهذا يوجد شعب إنكليزي وشعب فرنسي يختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف مع أن كل منهما يفصل بينهما مجرد مجرى مائي ضيق، وفي شرق فرنسا يعيش شعب آخر يختلف عن الشعب الفرنسي هو الشعب الألماني، والمستوى العلمي في الاثنين واحد، ولكن الاختلاف في الحياة أو في الثقافة بتعبير آخر، وكل شعب من هذه الشعوب يجتهد في الحفاظ على ثقافته أو أسلوبه في الحياة لكي تظل له شخصيته ويستمر وجوده، ولو افترضنا أن الشعب الفرنسي تخلى عن تراثه الثقافة وخصائصه الشخصية، وترك فنونه وأسلوبه في الحياة لاختفى هذا الشعب الفرنسي كله من الوجود، لأن الأمن القومي والأمن الغذائي يقومان أساساً على قاعدة من الأمن العلمي والثقافي.

> جامعاتنا تشكو من قصور البحث العلمي والدراسة الجادة

دعوات للثقافة

ورغم دعوات الدول العربية الشقيقة إلى ترصين مفهوم الأمن والثقافي في أكثر مؤتمرات الجامعة العربية إلا أن السؤال المثير هو: أين نحن من الأمن العلمي والثقافي؟

ولن نجيب عن هذا السؤال إلا بالقدر الذي يسمح به علمنا، وهو جد قليل، ومن هنا سأتناول ناحيتي العلم والثقافة، ففي العلم نسأل: هل نحن آمنون علمياً؟ أقصد هل أجهزة العلم عندنا سليمة مهيأة بكل ما يمكنها من البحث العلمي وتخريج الشباب المتخصص في علوم العصر ومطالبة التكنولوجية، وأجهزة العلم في الجامعات والمعاهد، وتحت هذه الأخيرة تندرج مراكز البحوث والأكاديميات، وكلامنا هذا ينصب على الوطن العربي كله لأن المستوى فيه في هذه الناحية متقارب جداً، والجواب هنا واضح وصريح، ولابدّ أن يكون واضحاً وصريحاً لكي يكون هناك سبيل للعلاج، والجواب أننا غير آمنين علمياً.

البحث العلمي العربي

جامعاتنا تشكو قصور أجهزة البحث والدراسة فيها، لا عن في المال فحسب، بل عن إهمال وتقصير وقلة طموح، أو عدم إدراك لجسامة الواجب الملقى على عواتق المسؤولين عن البحث والدراسات، وأخطر من ذلك كله، ستجد المسؤولين عن البحوث قد تحولوا إلى موظفين يتمتعون بكل عيوب الموظفين التقليديين، وننتقل الآن إلى ميدان الثقافة، ثقافتنا، الأصيلة، لغتنا العربية، تقاليدنا الاجتماعية، أصولنا الفنية، أسلوبنا في الحياة كله، هل هذا كله آمن؟ والجواب الحزين على شفاهنا جميعاً: إن لغتنا العربية في تدهور، حتى المتخرجون من الجامعات العربية في أقسام اللغة العربية لا يحسنون العربية، هذه حقيقة يعرفونها هم، ونعرفها نحن، وهل هناك أعجب من أن دور الصحف تعاني أزمة من المصححين، أي في رجال يتقنون اللغة العربية ويستطيعون تصحيح ما يرد من الأقطار في المادة التي تنشر، وموسيقانا وأغانينا كيف حالها؟ الموسيقى أصبحت تلويناً نغمياً من دون معنى، والأغاني ماذا تسمع فيها غير ترديد ممل وتقبل لعبارات مستهلكة ثقافياً.

إذاً نحن غير آمنين، بل إن التوجيه يعاني قصوراً معيباً، ولابدّ هنا من وضع الأمن العلمي والثقافي موضع البحث والدرس والعلاج بالضبط كما عالجنا بنجاح موضوع الأمن القومي وكما نعالج باهتمام وإخلاص باليقين موضوع الأمن الغذائي.

برجك اليوم 4/11

نجلاء قباني

الحمل

حاول مصارحة المحيط بما يدور في داخلك وناقشهم فأنت حازم وتستفيد تماماً من كل ما يحصل حولك فلا خاب من استشار، اسمع النصائح من مجربين ومن مختصين وخذ قرارك على هذا الأساس.

عاطفياً: تحاور وتناقش وتقوم بأشياء لم تكن تتجرأ على القيام بها وتنال تقديراً يسعدك.

الثور

اشرح وجهة نظرك بهدوء، فاليوم ليس لتعقيد الأمور أو للسير باتجاه التصعيد وانتبه من شحنة التسلط التي تحملها ولا تستعملها هذه الفترة ضد من تحب فقد تبدو بائساً أو محبطاً. الأمور العاطفية متعبة فكن متأكداً مما يحصل وخاصة أنك قد تفاجأ عندما تعلم بكذب أو احتيال قام به أحد المقربين منك ما يجعلك تصاب بخيبة أمل وهذا ما تكرهه (أي الكذب).

الجوزاء

تبادر اليوم إلى اتصالات مجدية على الصعيد العملي أو العاطفي وأخبار سعيدة أو تطرأ عليك ظروف أو مفاجآت تجعله مميز فربما تمتلك فيه شيئاً يسعدك فمحبيك داعم. عاطفياً: الفترة للسفر والتعارف الجديد بامتياز وقد تدخل بعمل جديد أو دورة تدريبية فتتعرف على أناس جدد.

السرطان

حاول جدياً أن تظل في الحدود الدنيا في أمورك المتعلقة بالمال فقد تعاني من مستحقات للدفع وفكر جدياً بأن تطالب بحقوقك المالية وابتعد عن الإسراف وخاصة أنك أصلاً مسرف.

عاطفياً: الحظوظ مساعدة والتغيرات من حولك سريعة وتحتاج لكل ذكائك لتصل إلى ما تريد.

الأسد

دراما عاطفية تعيشها هذا الشهر وصوت جميل جاء ليقول لك إنك في الشهر الأفضل لتبادر ولتتعرف على أصدقاء جدد ولتصالح من حولك ممن تحب وتصبح محبباً للمعرفة.

عاطفياً: قد تسمع خبراً عاطفياً يفرحك سيفتح لك آفاقاً مستقبلية جميلة تتمناها وتسعى لها.

العذراء

أنت تعطي دروساً في الصبر فكن تلميذاً جيداً لدروسك فاسمع كثيراً وتكلم قليلاً فقد تكون غيوراً أكثر من اللازم أو عصبياً وكأنك غير راضٍ عن كل ما يحصل.

الأمور العاطفية متعبة فابتعد عن العصبية ووضح الأمور وخاصة إذا شعرت أنك قد تختلف مع الآخرين بسبب سوء تفاهم أو أزمة قلة ثقة.

الميزان

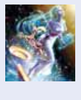

أنت مزدهر عاطفياً ومحبوب ممن حولك والشهر ستقضيه في زيارات أو لقاءات أو في دعوات وقد تفكر بسفر فسيكون على جدولك الكثير من التواصل والتعارف الجديد وربما تدعى إلى حفلات أو زيارات.

عاطفياً: أنت تسعى إلى تغيير حياتك ولكن الأرض لن تكون ممهدة فهي بحاجة إلى لطفك ولينك.

العقرب

لا تعكر صفو هنائك بكلام صريح أو عصبية في ردود الأفعال قد تزعجك واحذر الخلافات والانقلابات المفاجئة لأنك عصبي وردود فعلك متسرعة وتملكية.

الأمور العاطفية متعبة وقد تشتاق للشريك وتشعر بصعوبة في الاتصال به سواء في سفر أو بسبب عنادك.

القوس

تستقر الأمور ويقل تشويشك ولتنتهي فترة الإحباط وعدم الارتياح فهذه أيام لإصلاح الأخطاء ولمواجهة نفسك بأخطاء سابقة قمت بها من دون أن تنتبه وهذا طبيعي لأنك بشر ولست ملاكاً من دون أخطاء.

عاطفياً: أنت تشجع العودة للجذور أو للأرض أو للوطن أو تقترب من عائلتك والعراقيل إلى زوال.

الجدي

أنت تنصح الآخرين وتدعمهم وتشاركهم في أمورهم تخطط لتحسين وضعك المهني فقلبك يدلك على الصواب والمساعدات حولك كثيرة فمن حولك يقدرون جهودك.

عاطفياً: اليوم جيد لتعيش إقبالاً على الحياة ولتقوم ببعض التغييرات لتكون الأمور أفضل.

الدلو

ابتعد عن الاحتكاكات في العمل أو مع زملاء العمل أو مع رؤسائك إذا وجدوا فدرب ذهنك لكيلا تقوم بفعل عدائي أو كلمة مستفزة تعزز المشاكل مع محيطك.

الأمور العاطفية متعبة فحاول التعبير عن مشاعرك من دون مبالغة سواء أكان في الحب أم في المشاكل وتكيف مع بعض الظروف التي لا ترضيك.

الحوت

أنت تحتاج للراحة الجسدية والأهم الراحة النفسية فالعمل كثير والمزاج كسول وأنت تسعى لتتم كل واجباتك ولترضي أهلك وأصدقاءك سواء العائلة أم الشريك.

عاطفياً: أنت في يوم مفرج والاحتمالات كثيرة ابتداءً من التعرف على شريك جديد وانتهاءً بمصالحات لمن تحب.